ما بعد الموت

للكاتب الروسي بوريس بايوف

بقلم الأستاذ فوزي شاهين

تتلخص هذه الكلمات الأربع حياة الملازم فوجانوف : طفولته ومدرسته والكلية الحربية. أما الكلمة الرابعة فتحتاج إلى مجلدات ضخمة تنظم فيها الملاحم . كثيرا ما يحدث ألا تزيد الساعات الجديرة بالذكر في حياة الإنسان الطويلة على ساعات ثلاث . ولما كنا نتحدث عن فوجانوف ، فالساعات الثلاث الأخيرة من حياته هي ساعاته الخالدة

أتيح لفوجانوف في هذه الساعات أن يرقى إلى أسمى مراتب البطولة الإنسانية ، إذ لا حياة ولا موت ، وإذا لا مكان لغير الأبدية والخلود. في هذه الساعات الأخيرة احترقت حياة فوجانوف ، ولكن الدبابات الألمانية لم تستطع تقدما

فصلت الفصيلة المرتدة عن الجبهة الأمامية المدفعية التي يترأسها فوجانوف ، وحملق فيهم الرجال بعيون الدهشة وتهيأ قلوبهم رعبا وحذرا ، وكأنما كانوا يرونها للمرة الأولى ! وعند ذلك اللحظة أصبح فوجانوف ورجاله موضوعا للأغنية والأسطورة ، وصارت مدفعيته الثقيلة موضوعا للمتاحف والتاريخ ، وما كان الرجال وهم فيما هم فيه من هول يحسون بشيء من ذلك . .

كان الرجال يسيرون خلف عربة المدفع التي تحمل جثة قائدهم صامتين والأسى يلفهم بردائه الأسود القاتم ، واستودعت الأرض بأطراف القرية جثة فيدور فوجانوف . وبعد أن ألقيت كلمات الوداع وأطلقت آخر طلقة للتحية ، أسقط الكاتب من السجلات اسم الملازم فيدور فوجانوف ، ثم تابعت الفرقة سيرها لتستأنف حياة القتال الرتيبة

حديث واحد هو ذلك الحديث الذي كان يدور في المساء سواء في فرق المدفعية المنتشرة على طول الجبهة ، أو في الخنادق المنتشرة هنا وهناك ، أو في المحطة القريبة من جبهة القتال — الحديث عن بطولة فوجانوف وميتته الخالدة . انثالت الأسئلة على كل من حضر الوقعة ، وحاول كل أن يستعيد ما تستوعبه الذاكرة . وقال الذين لم يروا فوجانوف على قيد الحياة : لقد عاش بيننا ذلك البطل وبعث هذا تركنا الفرسة تفلت !

أما أولئك الذين عرفوه فقد أجهدوا

أذهانهم مسترجعين ذكريات لقائه، مستعيدين كلماته حرفا بحرف، سواء أكانت تمت إلى الموضوع أم كانت من عادى الكلام. وتحدث طباخه عن الطبق المفضل لديه ... وبالرغم من أن تلك الذكريات لم تذكر بطولة القميد، فقد كان الرجال حريصين استعادتها كما لو كانوا يجمعون كنزا ثمينا، راغبين فى رسم صورة كاملة للشهيد يطبعونها على صفحة ذاكرتهم، حتى إذا تقدم بهم العمر، وجدوا ما يقصونه عن البطل لأبنائهم وأحفادهم

هكذا بعث من جديد فيدور فوجانوف، وبدأ يحيا حياة أخرى، ولم يعد — كما كان فى حياته — ذلك الفتى الأشعث الشعر، وإنما بدا فى نظر رجال فرقته أنموذجا رائعا لما ينبغى أن يكون عليه البطل. وعثر البعض على بطاقته الشخصية وقد خضب دمه مكان الجبهة والكتفين من صورته، فأجمع الكل على أن تلك الصورة هى التى تشبهه تماما..

تأمل دوبر كيوف — أحد الكشافة — الصورة ملبا ثم استأذن فى استبقائها لديه تلك الليلة، وسهر الليل بطوله يرسم لوحة مكبرة لفوجانوف، ما كاد يتأملها زملاؤه فى الصباح حتى هللوا قائلين إنها تشبه الأصل كثيرا، إلا أن أحدهم اعترض على شكل الأنف، فقد كان أنف فوجانوف أفطس قليلا، ولكن الكشاف رد عليه قائلا:

— لقد عاش فوجانوف رجلا ومات بطلا. أفتريد منى أن أرسمه بأنف قبيح؟ كلا! ليكن كاملا فى كل شئ!

ونشرت الصورة فى الجريدة الإقليمية فقال كل من رآها: «الصورة الحية!» واحتفظ كل منهم بالعدد تذكارا

كان من بين مخلفات فوجانوف القليلة مسدسه، وهو مسدس عادى كسائر المسدسات التى يحملها زملاؤه. وبالرغم من أن مقبضه لم يكن من فضة أو يتميز بالحلى والنقوش، فقد اشتعل الجميع رغبة، كل يطالب بالمسدس ليحتفظ به للذكرى. كأن المسدس أصبح رمزا للمجد، فصاح القائد بغضب عندما انهالت عليه الطلبات:

ماذا دهاكم؟ أليس لكل منكم مسدسه؟

وقرر القوميسير أن يكون مسدس فوجانوف من حق القائد الذى تولى مدفعيته أحسن بلاء. وهكذا تسابقت الفرق إلى الظفر بالمسدس الذى أوقفت رصاصاته زحف الألمان

أعيد تنظيم فرقة فوجانوف، وقبل بها بعض الجدد ممن لم يروا فوجانوف من قبل؛ ولكنهم منذ اللحظة الأولى سموا أنفسهم «الفوجانوفيين» لأن هذا هو اللقب الذى اختاره رجال الفرقة جميعا، ولم يغضب ذلك القائد الجديد، فقد كان المجد الخالد الذى أضيء لسلفه ينعكس عليه فيحيطه بهالة من نور، فامتلأ فخرا لوقوفه على رأس فرقة فوجانوف التى ذاع اسمها فى كل مكان

وبدأ الصحفيون يتقاطرون إلى المكان ، كلهم يطمع فى الحصول على نبأ جديد عن البطل الراحل ، وأخذوا يجمعون ما كان بالأمس نسيا منسيا ، فأصبح بين عشية وضحاها قصصا خالدا . وهكذا انتشرت أنباء حياة فيدور فوجانوف القصيرة التى تلخصها أربع كلمات ، وأنباء موته الذى يستحق أن تؤلف عنه المجلدات

طارت الأخبار إلى القرية الصغيرة بسيبريا حيث ولد فيدور فوجانوف ، وطالعت الأم القصة التى تمجد بطولة ابنها ؛ ولكن المقالة التى ملأت صفحة كاملة بما كانت تحمله من أسباب تبعث على الفخر ، لم تكن تحدثها إلا عن أمر واحد : لقد مات ولدها ! انفجرت الأم باكية وتلقتها جارتها بين ذراعيها غير محاولة أن تخفف عنها أو تقدم لها العزاء ، وقالت ببساطة :

— إبكى ماطاب لك البكاء ياستيبانوفنا ! ينبغى أن تبكى ، ولكن من حقك أن تفخرى أيضا !

وقطع مدرس القرية الدرس فجأة وهو يقول بصوت مرتجف :

— أى أبنائى ! على نفس هذا المقعد جلس من قبل فيدور فوجانوف البطل الخالد

وتطلع الصغار جميعا إلى المقعد الذى كان يحتله البطل وقد توردت خدودهم فجأة ، وظل المدرس فترة يرمق المقعد دون أن تستطيع عيناه تحولا أو يواتيه الصوت ليستأنف الدرس

وعندما اجتمع فلاحو القرية اتفقت كلمتهم على أن يطلق اسم البطل على القرية ، وأن يقام لفيدور فوجانوف تمثالا على حضرة الوادى . وسرعان ما وفد إلى القرية مثال سأل الأم أن تعيره ملامحها من رسوم ، فنحته كل ما عثرت عليه ، ومن بينه صورة لابنها عندما كان حدثا أشعث الشعر فى زى المدرسة ، وأخرى له وهو فى البزة العسكرية ؛ ولكن الصور لم ترض الفنان ، فإنه لم يأت إلى القرية لينحت تمثالا لطفل غر ، وإنما جاء لينحت تمثالا لمحارب ملأ صيته الأسماع

ونفذ الفنان الفكرة التى طافت برأسه كما تخيلها لفيدور . عينان واسعتان متفتحتان للحياة ، وجبهة عريضة تحدثك عن عزم وقوة ، وقامة مديدة تحارب صلب العود ، كما كان يصبح فوجانوف لو امتد به الأجل واكتمل نضوجه

كم أود لو أمتع ناظرى بذلك التمثال . إننى أحسد فوجانوف .. ترى كم تبقى لدى فى الحياة من سنوات ؟ أقدر لى أن أعيش ساعة .. شهرا .. عاما .. ثلاثين عاما ؟ لكن فيدور فوجانوف سيظل إلى الأبد حيا ، يشرف على قريته الخضراء ، نابضا بالحياة ، خالد الشباب ، وستستعيد الأجيال المقبلة قصة حياته القصيرة ، وميتته الخالدة ، وهم يتناقلونها جيلا بعد جيل .. هذا هو الخلود

فوزى شاهين